

## الفصل التاسع

### (١) خواطر في ليلة عاصفة

هذه خواطر شاب يعيش في مدينة كبيرة ، قضى أمسيته مع رفقائه وعاد بعد منتصف الليل إلى منزله ، يتلمس طريقه ، ويحس بالوحدة والسأم ، وذكريات الماضي تنوارد الى خاطره ، ثم تتزاحم وتقاتل في سرعة خاطفة .

« إذ ينبعث من الذاكرة كل ما هو سام وجاف

أمور متراحة ملتوية ؛

كفصن بان مال على الشاطئ

الفاكهة المساء قد التهمناها . والقوم قد تهذبوا

كأن العالم قد أفصح

عن مكنونات هيكله ،

ذلك الهيكل الصلب بلونه الأبيض

في فناء المصنع زنبك مكسور .

الصدأ العالق بالشكل الذي خلفته القرة من ورأتها

صلباً مجدداً ومتوثباً ، (٢) .

“Rhapsody on a Windy Night“

“The memory throws up high and dry

A crowd of twisted things;

A twisted branch upon the beach

Eaten smooth, and polished

As if the world gave up

The secret of its skeleton,

Stiff and white.

A broken spring in a factory yard,

Rust that clings to the form that the strength has left

Hard and curled and ready to snap.”

ibid., “Rhapsody on a Windy Night,” pp. 24-25.

(١)

(٢)

هذه الخواطر ليست مترابطة . فهي تتسم بالنزعة السيريالية في مضمونها وجوهرها ، تنبع من أعماق اللاشعور ، وتعبّر تعبيراً صادقاً عن مكنونات النفس وعن الرغبات اللدنية التي كثيراً ما تغوص في أغوار العقل الباطن لتستقر هنالك إلى أن تحين الفرصة فتهم بالاندفاع إلى الشعور . فهي لهذا ترجمة أمينة لميولنا الغريزية التي لا تخضع لسلطان العقل أو الحكمة المنطقية من مقدمات أو فروض ونتائج لازمة عنها ، أي أنها لا تخضع لقانون الحتمية . وهي في فطريتها بعيدة كل البعد عن تحكم العرف والتقاليد الاجتماعية . فهي تنقلنا إلى محيط مكثظ بالانفعالات المتضاربة ، تزدحم فيه الذكريات ، وتختلط فيه الخواطر العابرة التي تنتقل بنا من الفاكهة الغضة إلى العالم الرحب الفسيح المليء بالغموض والأسرار ، ومن المصنع إلى القوة الهائلة المحركة له ، وهكذا :

« تعاوده الذكريات

عن الجيرانيوم<sup>(١)</sup> الجافة وقد غابت الشمس

وعلقت الرمال بالفجوات

وانبعثت رائحة أبو فروة من الطرقات ،

ورائحة السيدات من الحجرات ذات النوافذ الخشبية ،

والسجاير في الممرات

والكوكيتيل في الحانات »<sup>(٢)</sup> .

كل هذا والشاب يتابع مسيره في خطى متناقلة نحو مسكنه ، فترتم أمام

(١) نبات الحبيزة الإفريقية .

(٢)

"The reminiscence comes  
Of sunless dry geraniums  
And dust in crevices,  
Smells of chestnuts in the streets,  
And female smells in shuttered rooms,  
And cigarettes in corridors  
And cocktail smells in bars."

Ibid., p. 26.

مخيلته هذه الصور المتلاحقة التي تعكس وراءها سلسلة طويلة من المراثيات ،  
وتبين لنا في لمحات خاطفة ذلك القطاع الواقعي المتصل بحياتنا اليومية وخبراتنا  
العادية . وهذه الخبرات الواقعية من حفلات الكوكتيل والسجائر والنساء والزهور  
وغيرها قد عرفها هذا الشاب عن قرب ، فهو يعيش وسط المدينة ، لا في عزلة  
مقيدة كما رأينا في تعرضنا لشخصية بروروك ، بل إنه يحيا في تفاعل إيجابي  
مع كل ما يحيط به من أروان المتعة الحسية . وما هي إلا لحظات حتى يصل إلى  
منزله قبيل مطلع الفجر ، ويتصور أن :

« المصباح يخاطبه قائلاً »

الساعة الآن الرابعة

ها هو رقم المنزل على الباب .

يا لها من ذكريات !

المفتاح معك ،

والمصباح الصغير قد ألقى دائرة ضوئية على درج السلم .

هلم بالصعود .

فالفراش معد ، وفرشاة الأسنان معلقة على الحائط ،

وعليك أن تخلع نعليك عند الباب ، ثم تنام ، وتستعد لملاقاة الحياة<sup>(١)</sup> .

وهكذا يستقبل يومه التالي ، ويعاود نفس الكرة في روتينية مملة ، تتقاذفه

الحانات ، ويفرغ من هذا الكأس ليلتهم غيره عليه ينسى أو يتناسى كل ما من

“The lamp said,

‘Four o’clock,

Here is the number on the door,

Memory !

You have the key,

The little lamp spreads ring on the stair.

Mount.

The bed is open; the tooth-brush hangs on the wall,

Put your shoes at the door ,sleep, prepare for life.”

(ibid.

شأنه تعكير صفوه وسط خضم هذه المدن الصناعية الكبيرة التي تموج بضجيج الآلات وصخب المارة من السكان ، حتى إذا ما استرد مشاعره وأفاق إلى نفسه ثانية ، عاوده الشوق والحنين إلى ذكريات الماضي . ويخرج من هذا المعترك ليصدم بالحقيقة الراهنة من التكرار البغيض لحياته اليومية . فيقف أمام هذه الحقيقة دون حراك ، إذ أنه لا يملك تغييرها وليس في مقدوره أن يحيد عنها قيد أمثلة .

وتعلل لنا هذه القصيدة ذلك الترابط الوثيق بين الفرد والمجتمع . ويتم هذا الترابط عن وجود مشكلات شتى تنعكس بدورها على حالات الأفراد النفسية والاجتماعية ، فالمؤثرات البيئية تمثل خطراً جسيماً في تشكيل الأفراد والجماعات ، هذا بالإضافة إلى الانحرافات المتعددة الناتجة عن سوء التوجيه مما أدى إلى تراكم العقد النفسية وتعقد الشخصية إلى أبعد حد .

### الفتاة الباكية الصغيرة<sup>(١)</sup>

بعد القصيدة السالفة بترك إليوت ، ولو إلى حين ، هذا الجرو المكفهر بعقده وانحرافات لينقلنا إلى عالم الحب والفن في قصيدته التي أطلق عليها اسم « الفتاة الباكية الصغيرة » .

وتلور أحداث هذه القصيدة حول تمثال فتاة باكية في إحدى متاحف إيطاليا كان إليوت قد سمع عنه ، ولما زار إيطاليا سنة ١٩١١ حاول أن يشاهد هذا التمثال ويبحث عنه طويلاً دون جدوى . إن الفتاة تبكي لأن حبيبها سيبتعد عنها ، ففي الفراق لوعة وأسى . وها هو الموقف كما تخيله إليوت :

« وهكذا سيركها حبيبها

وهي واقفة بائسة

ميفارقها

كما تفارق الروح الجسد وتتركه مهلهلاً مرضوضاً  
أو كما يترك العقل ذلك الجسم الذي عاش في كنفه .

مأحاول أن أجد طريقة ميسورة

في خلق لا يجارى ،

طريقة نفهمها معاً ،

لا نتعدى الإبتسامة البسيطة وتشابك الأيدي بعد فقدان الثقة<sup>(٢)</sup> .

“La Figlia Che Piange”

“So I would have had him leave,

So I would have had her stand and grieve,

So he would have left

As the soul leaves the body torn and bruised,

As the mind deserts the body it has used.

I should find

Some way incomparably light and deft,

Some way we both should understand,

Simple and faithless as a smile and shake of the hand.”

Ibid., “La Figlia Che Piange,” p. 31.

(١)  
(٢)

إن إليوت يحاول في ثنايا هذه الأبيات أن يجعل للعقل مكاناً في تصرفاتنا العاطفية فهو لا يؤمن بذلك الاستسلام المطلق لحدة الوجدان والاستجابة الكلية لرغباتنا القلبية ونزواتنا الشعورية . إنه يؤمن بالمشاركة الوجدانية المبنية على الفهم المتبادل ، ولا يتعدى ذلك الابتسامة الرقيقة وتشابك الأيدي في غير ضعة . ومن ثم يستطرد الشاعر قائلاً :

« لقد أدارت الفتاة ظهرها ، وكان الجو خريفاً ،

وتملك منظرها هذا على مخيلتي أياماً عديدة ،

أياماً متتالية وساعات طوالاً !

وقد انساب شعرها على ذراعيها وهي ممسكة بالورود .

ترى كيف قضت وقتها مع صاحبها !

لو كان أمرها كذلك لفقدت لذة الإيماء والفضول .

هذه التأملات ما زالت تدهشني أحياناً

بين حيرتي في منتصف الليل وراحتي وقت الظهيرة » (١) .

هذا هو المنظر كما تخيله الشاعر وكما علق بذهنه مدة أيام متتالية ، فلك

عليه لبه وفؤاده ، ومصدر دهشته هو أن سلوكنا قد يبدو غريباً شاذاً أحياناً .

فالفاتاة قد أدارت ظهرها في إحجام دون مبرر بالرغم من بكائها لفراقه .

= 0 0

“She turned away, but with the autumn weather

(١)

Compelled my imagination many days,

Many days and many hours :

Her hair over her arms and her arras full of flowers.

And I wonder how they should have been together !

I should have lost a gesture and a pose.

Sometimes these cogitations still amaze

The troubled midnight and the noon's repose”.

Ibid.

بعد هذه القصيدة المليئة بحيوية الشباب ومرحه وأحزانه وانفعالاته الصاخبة يتحول إليوت إلى نقد المهيمين على الدين في قصيدته « عجل البحر »<sup>(١)</sup> و « صلاة مسر إليوت في صبيحة يوم الأحد »<sup>(٢)</sup> ، إذ يقول :

« إن عجل البحر يقضى يومه في نعاس ؛

ويبحث عن قوته بالليل ؛

هكذا تتحقق الإرادة الإلهية بطريقة خفية -

لكن الكنيسة تطعم وهي تغط في سبات عميق »<sup>(٣)</sup>.

إن هذا الحيوان يبحث عن قوت يومه بغض النظر عن الوقت الذى يقوم فيه برحلته وتجوّاله . أما معظم رجال الكنيسة فيقدم لهم الطعام والشراب دون أى عناء . لقد شغلهم جريمهم وراء المادة عن افتقاد النفوس الضالة . ولسنا نذهب إلى مدى بعيد إذ في فناء الكنيسة :

« يعيش النحل على امتداد سور الحديقة

عرق بشعيراته ويطونه

بين أعضاء التدكير والتأنيث

هذا هو العمل المحب لشغالة النحل »<sup>(٤)</sup>.

فالنحل يطير بين الزهور ويجمع رحيقها ويحوّله إلى عسل شهي ، أما غالبية رجال

"The Hippopotamus"

(١)

"Mr. Eliot's Sunday Morning Service"

(٢)

"The hippopotamus's day

(٣)

Is passed in sleep; at night he hunts;

God works in a mysterious way —

The Church can sleep and feed at once."

Ibid., "The Hippopotamus," pp. 49-50.

"Along the garden-wall the bees

(٤)

With hairy bellies pass between

The staminate and pistillate,

Blest office of the epicene."

Ibid., "Mr. Eliot's Sunday Morning Service," p. 56.

الدين فقد شغلهم أمور الدنيا عن مهمتهم الأصلية وهي الخلعة الروحية

• • •

بيربانك ومعه بايديكار : بليستان ومعه سيجارته<sup>(١)</sup> .

كان طبيعي بعد القصيدتين السالفتين أن يكتب إليوت عن مشكلة تغلغل المادية في النفوس ، وما أعقب ذلك من ضعف المستوى الخلقى ، وفقدان القيم الروحية في المجتمع الحديث . وفي قصيدته التي أطلق عليها « بيربانك ومعه بايديكار : بليستان ومعه سيجارته » يضيف إليوت إلى ما تقدم اضمحلال النزعات الفنية في عصرنا الحاضر متخذاً البندقية مثلاً له في هذا المضمار . فبعد أن كانت البندقية تزخر بالفتانين العظام ، أصبحت مركزاً للتجارة والسياحة وموطناً للعشاق الذين يقضون أوقاتهم في التنقل بين خريز جداولها ، فما هو :

« بيربانك قد عبر القنطرة الصغيرة

ونزل في الفندق الصغير ؛

ووصلت إليه الأميرة فولوبين ،

وقضيا وقتهما سوياً إلى أن وقع في حبها »<sup>(٢)</sup> .

وبيربانك هذا سائح أمريكي قدم إلى البندقية ليقتضى فيها بعض الوقت في فندق صغير يطل على إحدى بحيراتها حيث الجندولا تمخر العباب . وبالرغم من أنه وقع في حائل الأميرة فولوبين إلا أنها لم تستمر معه طويلاً إذ استهل حديثه معها عن الفنون وقيمتها في تربية الذوق السليم ، فضاقت به ذرعاً وتعلقت بشخص آخر يدعى السير فيرديناند كلين<sup>(٣)</sup> الذي يفوق بيربانك في غناه

"Burbank with a Baedeker :

Bleistein with a Cigar."

"Burbank crossed a little bridge

Descending at a small hotel;

Princess Volupine arrived,

They were together, and he fell."

Ibid., "Burbank with a Baedeker : Bleistein with a Cigar," p. 40.

Sir Ferdinand Klein.

(١)  
(٢)

(٣)

فهو يهودى ينسخر الكثير من الأموال .

أما بليشتان فهو تاجر متنقل لا يهجمه من البندقية وغيرها سوى رواج بضاعته ، وهو على التقيض من بيربانك لا يعرف شيئاً عن الفن بالرغم من أنه قضى وقتاً طويلاً في البندقية ، فهو يمثل حب المال بأجلى معانيه . وفي الطرف الآخر نجد بيربانك صاحب القيم والمبادئ ، وإن كان قد فشل في حبه فذلك مرده إلى سوء تصرفه .

وأمام الجشع المادى الذى يركز في السير فيرديناند كلين

« يتلاشى الدخان المتصاعد من شمعة

الزمن » (١) .

وهذه الشمعة آخذة في الزوال بلا محالة وبخاصة تحت ضغط هذا الصراع المرير بين القيم المختلفة .

• • •